ذكريات مع خليل حاوي

أرض العروبة من جبل صنين

منح الصلح

عندما دخل خليل حاوي الجامعة الأميركيّة في بيروت وقامت بيني وبينه زمالة صفّ دراسيّ واحد واختصاص واحد وصداقة عميقة، وذلك في مرحلة الغليان السياسي والثقافي الذي تبع نكبة فلسطين وتأسيس إسرائيل، لم يكن هذا اللّقاء الأوّل بيننا. فقد التقينا قبل دخوله الجامعة بمدّة طويلة مداومين على حضور دروس في فلسفة الجمال كان يعطيها سعيد عقل في الأسبوع مرّة في كليّة الآداب العليا في الأشرفية، في قصر ثابت قرب بيت حبيب باشا السعد. كنت يومذاك طالباً في الثانويّة (القسم الفرنسي). في الجامعة الأميركيّة، تعاقب على تعليمي العربيّة إدوار غرّة وفؤاد سليمان، فعرّفاني بسعيد عقل الشاعر، الصديق لأفراد من عائلتي. ولا أذكر كيف تكوّنت من مجموعة شبّان قافلةٌ بينها طارئ من خارج الحرم الجامعيّ، هو خليل حاوي، تجتمع أسبوعياً على موعد قرب بناية الساعة لتذهب جماعةً إلى الأشرفيّة. كان سعيد عقل يعطي درسيْن: واحداً مخصّصاً لنثر أمين نخلة والمقاييس البلاغيّة الجديدة التي يمثّلها وخاصّة في **المفكّرة الريفيّة**، ودرساً آخر ضائعاً على طريقة عقل بين الجماليّة في الشعر ومفاهيم الفلسفة اليونانيّة للشعر وغير الشعر والعبقريّة الحضاريّة للبحر الأبيض المتوسّط...

لم تقم بيني وبين خليل في ذلك الوقت علاقة إلّا رفقة الطريق. وكان انطباعي عنه، المخطئ أو المصيب لا أدري، أنّه أحد مريدي الشاعر سعيد عقل، شاعر بالعاميّة، لبناني غير عروبي من الناحية السياسيّة إنّما بانفتاح على سوريا تاريخيّة تفاعلت في الماضي مع العقل الهيليني وانتمت من خلال «مطابخ» معيّنة ـ هي انطاكية وصيدون والاسكندريّة ـ إلى العمود الفقري للحضارة العالميّة، المشكّل أساساً من الفكر اليوناني والمسيحيّة وأوروبّا الحديثة. وهذه النظرة الجامعة بين موقع سوريا ولبنان تضمّنتها مقدّمة سعيد عقل لملحمته الشعريّة **قدموس**. وكان خليل شديد الإعجاب بالمقدّمة، فضلاً عن الشعر، وكأنّه كان يرى فيها توفيقاً بين الفكرة اللبنانيّة ـ بمفهومها الحضاريّ المتوسطيّ الرائج بين بعض أوساط المثقّفين في تلك الفترة الزمنيّة المتأثّرة بالنفوذ الثقافيّ والسياسيّ الفرنسيّ ـ والفكرة السوريّة القوميّة التي تبيّن لي أنّ «خليل» يعتنقها. والواقع أنّ المسافة لم تكن في ذلك الوقت واسعة بين العقيدة اللبنانيّة القوميّة والعقيدة السوريّة القوميّة، وبخاصّة في الاتّجاه الثقافيّ الحضاريّ. وكان كثيراً ما يرد على لسان خليل اسم شارل مالك الذي تربطه به صلة قرابة عائليّة ما.

لكنّ «خليل»، الذي عدت فتعرّفت به في الجامعة في مطلع الخمسينات بعد سنوات طويلة من مرحلة كليّة الآداب، لم يكن تماماً خليل القديم. فهو الآن منسحِب من تنظيم الحزب السوري القديم، متحمِّس بشدّة لحرّيّة الفكر في وجه توتاليتاريّة قيادة حزبه، يجتمع بغسّان تويني وفايز صايغ ويوسف الخال للتفتيش عن طريق جديد، وينشط خارج الجامعة داخل بيئات فكريّة.وسياسيّة يشعر ـ كما كان يقول لي ـ أنّها لا تملك الحقيقة، ولعلّها تملك النصف ويملك حزبه القديم النصف الآخر. وفي رأيي أنّ هذا الوسط الانشقاقي عن حزب أنطون سعادة هو ما أنتج بعد ذلك جماعة **شعر** والمجلّة المعروفة.

كانت شخصيّته الفكريّة أكثر تمرُّداً وأوسع مجالات من أن يرتدّ إلى الحزب، وكانت أشدّ حدّة وأكبر طموحاً من أن يتقبّل العيش في فضاء ليبراليّة لبنانيّة هي أقدر على الشكّ منها على الإتيان بيقين.

وجاء الجوّ الذي يعيشه طلّاب الجامعة الأميركيّة في بيروت وجوّ جمعية العروة الوثقى ومجلّة **العروة** وجوّ مناقشاتنا نحن أصدقاءه وزملاءه حول رياح التغيير والانقلابات التي بدأت تهزّ المنطقة العربيّة في كلّ شيء انطلاقاً من السياسة، تشحن قلبه وعقله وخياله بمقوّمات ولادة فكريّة جديدة. ولعلّه تساءل عن مشروع انقلابه الشعري العربي الخاص وهو يسمع أصداء انقلابات يقوم بها في كلّ مكان من أرض العرب عسكريُّون في سنّه وغير عسكريّين.

ولم يطل به الوقت حتّى اتّخذ قراره بأن يلقي دلوه حيث هو في جوّ شباب الجامعة الأميركيّة العروبيّ، وقد حصل له ما حصل لركّاب سفينة عطاش في أقصوصة لجبران خليل جبران. وتقول الاقصوصة إنّ الماء الحلو نفد والسفينة في عرض البحر، فحار من عليها في ما يفعلون، وأخذوا يستنجدون بالشيفرة لكلّ من يلوح لهم في عرض البحر من سفن ومراكب صغيرة، فلا يلقون ما يريدون من عون، إلى أن أسعفتهم سفينة بنصيحة عبر الأثير مفادها: القوا دلوكم حيث أنتم! ففعلوا، فإذا الماء حلو، وقد كانوا، من حيث لا يدرون، فوق مجرى أحد التيّارات المائيّة الحلوة النادرة ولكن الموجودة أحياناً في البحار!

في تلك الفترة، وفي الجامعة الأميركيّة، وجد خليل البوصلة التي ستوجّهه في المقبل من أيّامه، شعراً وفكراً وسلوكاً؛ فخليل الذي بلورته حياة التلمذة في الجامعة خليل جديد. قدّمت له الجامعة بديلاً عن ضائع، وصهرته فيها وحدة فكريّة وقوميّة في نظر الشباب العربي إلى قضايا بلاده وخاصّة فلسطين والوحدة العربيّة. فهو عندما سيتّصل بجماعة **شعر**، أو أيّ وسط ثقافي أو سياسيّ اشترك معه في الماضي في قول أو عمل أو تعاهد، فهو سيعرف ما يريد، وما لا يريد. وسيصارع طالباً داخل الجامعة الأميركيّة ثمّ في كامبريدج، ثمّ أستاذاً في الأميركيّة واللبنانيّة. ويصارع في كلّ مكان وعلى كلّ الجبهات.

وقد قال يوماً في ما بعد لساسين عساف: جاءت الوحدة (بين مصر وسوريا) مرتبطة بنزعة تقدّميّة انبعاثيّة عبّرت عن ذاتها في شعري، وكان الصراع على أشدّه في جبهتين متعارضتين أقودها أنا والدكتور سهيل ادريس في مجلّة **الآداب** والثانية يقودها يوسف الخال وأدونيس في مجلّة **شعر**. والغالب على النزعة الثانية تغريب لبنان وفصله عن التراث العربي.

إنّ ثنائيّة الإبداع والصراع عند خليل حاوي بدأت في الجامعة الأميركيّة في فترة تاريخيّة معيّنة، وقد كان طالباً كبير السنّ بسبب عدم انتظام دراسته وتركه لها فترة طويلة.

كان يشعر أنّه لن يصبح مؤثّراً في الحياة العربيّة، ومنها الحياة السياسيّة، إلّا بأن يبطل في عين نفسه أن يكون سياسيّاً ويختارَ أن يكون شيئاً واحداً هو الشاعر.

كنّا في الجامعة وفي العروة الوثقى وفي مجلس الطلبة والحركة الطلابيّة نحمل مقياساً لا نتخلّى عنه: هذا من تفكير ما قبل النكبة (١٩٤٨) فهو مرفوض، وذاك من فكر ما بعد النكبة فهو مطلوب. وكنّا نصنّف أهل السياسة بهذا المقياس الصارم، وكذلك كنّا في الثقافة ومع أهل الثقافة. دنيا عربيّة لها أوّل وليس لها آخر في التاريخ كما في الجغرافيا تتفتّح أو يجب أن تتفتّح.

وكنتُ بين ممثّلي الجيل العربي في الجامعة الأميركيّة من لبنانيّين قلائل، قادراً على فهم اعتزاز اللبنانيّ بدوره في النهضة العربيّة، بل أفهم اعتزاز أبناء الجبل اللبنانيّ بالذات بجبلهم. وكان هذا يؤنس خليلاً الحريص على طريقته على لبنانيّته وجبليّته، فيعتبرني مدخله إلى هذا البحر القومي العربي المتلاطم من الشبّان العرب الذين هم دون سنّه.

وأذكر أنّه في الحفلة التي وقف فيها خليل للمرّة الأولى على منبر «الوست هول» بناء على دعوة من العروة الوثقى ليلقي قصيدته «اهرمان» أو «يهوه إلّه اليهود»، قدّمناه على أنّه الشاعر الذي نطق بالعربيّة والعروبة معاً، إشارة إلى أنّ خليلاً كان ينظم في الأغلب باللبنانيّة الدارجة يوم لم يكن قد اتّخذ خياره السياسي العربي وأنّه طلّق الدارجة إلى الإبداع بالفصحى عندما أصبح في السياسة والفكر ذا رؤية عروبيّة.

أمّا مشاركته في مجلّة **العروة** الطلّابيّة، وكنت محرّرها، فقد تمثّلت في مقالين غير موقّعين كتبناهما معاً، أحدهما نقد لشعر سعيد عقل وصفنا فيه صناعته الشعريّة على أنّها حريريّة جديدة أي تصنّع إنشائي على طريقة صاحب المقامات الشهير. والواقع أنّنا كلينا كنّا ننظر إلى المسألة نظرة أدبيّة وفكريّة وسياسيّة معاً. ولعلّنا قسونا.

لكنّنا نظلم خليلاً حين نتصوّر أنّه كان في تلك الفترة حالماً بتغيير الإنسان والمجتمع عن طريق الفكرة السياسيّة، ولو كانت هي العروبة. فالسياسيّ هو جزء بسيط من عالمه. بل إنّنا نقول إنّه كان يشعر أنّه لن يصبح مؤثّراً في الحياة العربيّة ومنها الحياة السياسيّة إلّا بأن يبطل في عين نفسه أن يكون سياسيّاً، ويختار أن يكون شيئاً واحداً هو الشاعر. وكأنّه تتجسّد في حالته قاعدة تمام الاتصال بتمام الانفصال. وهو بالفعل لم يتّصل حقّاً بالسياسة إلّا حين انفصل عنها انفصالاً حقيقيّاً، بترك أيّ عمل سياسيّ أو منصب سياسيّ والترهّب للثقافة، مع شيء بسيط من الضعف إزاء سياسة قريته المحلّيّة؛ إذ كان لفرط حبّه لقريته لا يطيق الخلل في موازينها!.

لذلك، ولكونه كان حالماً بالتغيير من خلال الشعر والفكر غير مأخوذ بسراب الفكرة السياسيّة المحضة، فإنّ حياة خليل أثناء التلمذة في الجامعة كانت في غاية الجديّة.

كنت ألتقي معه داخل الصفّ في مواد الدراسة الأدبيّة، في صفّ العبريّة على يد الدكتور أنيس فريحة، وفي صفّ لزوميّات المعرّي على يد الدكتور اسحق موسى الحسيني، وأمثالهما من الصفوف التي يتجنّبها الطلّاب غير المضطرّين بحكم البرنامج لمتابعتها. وكان لا يأتي إلى الصفّ إلّا متمكّناً من الدرس أيّاً كانت صعوبته.

في العبريّة، كان يمتعه ـ كما يمتعنا جميعاً ـ سفر التكوين ونشيد الإنشاد وتركيز الأستاذ على وجوه الشبه بين العربيّة والعبريّة، وكون المقارنات الساميّة ضروريّة كمدخل لتيسير تعليم اللّغة العربيّة. وكان تعصّب الحاوي للعربيّة وعظمتها يتجلّى بشكل صارخ كلّما أكّد

الأستاذ على أنَّ العربيّة هي اللّغة الأمّ بين اللّغات الساميّة.

أمّا درس اللّزوميّات، وقد كان عبارة عن قراءة شرح وتذوُّق وتقييم للنصّ، فقد كان من أحبّ الدروس إلى قلب خليل، وكانت قيادة الدكتور اسحق للمناقشات تجعلها ممتعة وغنيّة. ولعلَّ الحاوي في هذا الدرس ومن تجربة أبي العلاء الغنيّة والصعبة قد غذّى في ذاته الميلَ إلى مقاومة إغراء السهولة في التفكير والتعبير الشعريّين، وقد كان بالأصل يعتبر الخلق عسراً لا يسراً ولا يتساهل في ذلك لا مع ذاته ولا مع الآخرين. على أنّه لم يكن يحبّ فلسفة المعرّي، وقد عبّر عن ذلك شعراً عندما قال في مكان ما من إنتاجه إنّه مستعدٌّ للموت في حبّ الحياة! وهو نزوع لم يعرفه المعرّي.

وفي حواراتنا خارج الصفّ، كنت أشدّ به نحو الحديث عن علم السياسة الذي كنت أدرسه إلى جانب الأدب، وكان هو يشدّ بي نحو الحديث الفلسفي، وقد كان يتعلّمه أيضاً.

وقد شعرت أنّه اعتبر نفسه منتصراً عندما رويت له مرّة أنَّ أستاذ السياسة روجرز سولتو، بعد تدريسنا سنة كاملة لمادّة السياسة، جعل الحصّة الأخيرة في العام مخصّصة لشرح بيتين من الشعر لصموئيل جونسون يقولان ما ترجمته: «كم هو ضئيل من معاناة القلب البشريّ ذلك الجزء الذي تستطيع الملوك والقوانين أن تحدثه أو تعالجه. How small of all that human hearts endure, that part which kings and laws can cause or cure. فقد أراد الأستاذ الإنكليزي الواسع الأفق العضو في جماعة الفابيّين الشهيرة أن يذكّرنا عن طريق هذين البيتين أنّه حتّى السياسة لا تملك حقّ احتكار القول إنّها مفتاح شقاء الإنسانيّة وسعادتها!.

فلمّا رويت لخليل ما أنهى به سولتو سنة تدريسه لنا سعد كثيراً بما سمع من محدوديّة دور السياسة بشهادة أستاذها! وقد كنّا نحن طلبة العلوم السياسيّة نفتخر بآراء هذا الأستاذ العالميّ الشهيرة المشبعة محاضراته على مدار السنة بالثقة بأهمّيّة العمل السياسيّ وكونه الأقدر على تغيير الإنسان والحياة ببناء الدولة والمجتمع الراقيين. كيف لا وهذا المعلّم يقدّم لنا النظريّة ونحن نطبّقها في مختبر النشاط السياسي الطلّابي وحركات الشباب!

ومن قبيل التعويض عليّ راح خليل يروي لي أنّ أساتذة الفلسفة الشبّان في الجامعة كسكوت وخشادوريان هم من الثائرين على الفلسفة الماورائيّة ويقاربون الفلسفة من منظور الوعي الوضعي الوضعي والأخلاقي والكيان الفرديّ والمجتمعيّ. ولعلّه كان يريد أن يتعاقد معي: فبقدر ما أتنازل عن تعالي السياسة يبدي هو استعداداً للتنازل عن الوهيّة الفلسفة.

وهكذا بتجاذبنا الحديث عن الشعر والأدب والسياسة والفلسفة، كنّا نملأ بالمتعة الذهنية والأحلام أمسياتنا ونحن نتمشّى في حدائق الجامعة وشوارع رأس بيروت. لقد كانت في نفس خليل ابن الجبل المتشبّع بقيمه الاجتماعيّة والأخلاقيّة غربة تجاه مدينة بيروت رافقته باستمرار وحتّى آخر عمره: كان يحمل عليها بقلمه ولسانه. ولكن هذه الغربة لا تنفي أنّه فيها وفيها وحدها كان يعيش منذ ما قبل الخمسينات حياته الحقيقيّة وكلّ أحلامه وكلّ طموحه الكبير وكلّ شعوره الحادّ بالحاجة إلى انقلاب شعري يوازي عنده بالأهمّيّة كلّ الانقلابات التي كان يحلم بها في تلك الأيّام من هم أبناء جيله من العسكريّين والمدنيّين العرب الحالمين بتغيير الأوضاع ووجه الحياة.

وكان يحدث أن يزور بيروت بعض الكبار من ساسة العرب ومفكّريهم وأدبائهم من ذوي العلاقة بحركة التنوير العربيّة، فكنت أهتمّ بأن يكون خليل معي في زيارتهم. فقد ذهبت معه مرّة لزيارة السياسي والناقد المصري الدكتور محمد مندور في فندق المشرق في الحمراء، فاجتمعنا به اجتماعاً طويلاً تباحثنا معه في شؤون السياسة والأدب. إلّا أنَّ ما أدهش خليلاً في هذه الزيارة وأبقاها بتفاصيلها في ذاكرته أنّه ما كاد يذكر أمام مندور أنّه يحبّ إنتاج الشاعر الفرنسي راسين حتّى سأله عن المسرحيّة التي يفضّلها من بين مسرحيّاته، فلمّا عرف أنّها فيدر انطلق مندور في إنشادها من أوّلها إلى آخرها دون أن ينسى فصلاً منها أو مقطعاً أو بيتاً، وخليل مأخوذ بما يسمع بل مأخوذ بمشهد هذه المقدرة الهائلة على الحفظ، وكأنّه لم يكن ينتظر وجودها عند عربي غير لبناني! وقد قال لي بعد انتهاء اللقاء إنَّ أهل الشوير قريته تعجبهم أكثر من سواهم مشاهد «الرجولة»، ممّا أوحى إليّ بأنَّ خليلاً حسب نفسه وهو يستمع إلى مندور صبيّاً في ساحة الضيعة يعدّد لقبضاياتها مرّات تربيعها لجرس الكنيسة!

وقد ذهبت وإيّاه مرّة أخرى لزيارة الأستاذ ميشال عفلق فجلسنا معه جلسة طويلة دارت كلّها على الأدب والشعر. وكان الكلام أكثر ما يكون لخليل أو لي، وأقلّه لعفلق الذي كان يتدخّل لإبداء آراء مختصرة في الموضوع المطروح تنمّ عن أصالة اهتمام وتبقى مدويّة في الذهن. فلمّا خرجنا من منزل الرجل، لاحظت تأثّر خليل باللّقاء، وخاصّة باختلاف صورة عفلق عن صورة الزعيم القائمة في ذهن خليل من تجربته في الحزب القومي. وأعرب لي عن إيمانه بقيمة هذا القائد العربي وبساطة عيشه وإنسانيّته الغنيّة في الحوار والتصرُّف.

وعلى الرغم من أنَّ صداقتي مع خليل ظلّت متينة، فقد كانت في أوجها أثناء الدراسة الجامعيّة المشتركة وهي، في رأيي، سنوات ولادته الفكريّة والقوميّة الثانية كشاعر كبير وإنسان مميّز، وقد سبقت ذهابه إلى كمبريدج بكلّ ما عناه هذا الذهاب في إنتاجه.

ومن آن إلى آخر، كان يطلّ عليّ ليلاً وبشكل مفاجئ في منزلي برأس بيروت ليطرح عليّ رأياً أو فكرة، أو يدعوني إلى عمل.

قال خليل: «نحن لا نريد أن نكرِّم سياسة سعيد عقل ولا مدرسته الفنية»!

ذات مساء من ربيع عام ١٩٧١ زارني خليل حاوي وبادرني والاهتمام بادٍ على وجهه بأنّ هناك خطراً يقتضي التعاون لدفعه؛ فبعض زملائنا في جمعيّة أصدقاء الكتاب ـ ولعلّه المرحوم زميله في التدريس أنطوان غطّاس كرم ـ يعمل لإعطاء سعيد عقل جائزة رئيس الجمهوريّة للعام، فلا بدّ من السعي لإحباط هذه النيّة وإلّا وقعت الكارثة.

وبعد أن اطمأنّ باله للموقف نتيجة التجاوب الذي وجده عندي ونتيجة تحليلي لحقيقة مواقف الأعضاء، انطلق يورد حيثيات حماسته: «كلّ شيء سياسة في هذا البلد، فإذا أخذها سعيد عقل سيقال إنّ مواقفه السياسيّة هي موضع التكريم. ونحن لا نريد أن نكرِّم لا سياسته ولا مدرسته الفنيّة»! ولعلّه كان يتذكّر في تلك اللحظة وهو يتكلّم المقال الريادي الذي كنّا تشاركنا أنا وهو في كتابته قبل عشرين عاماً في مجلّة **العروة**، نثور به على «عملاق» الشعر في ذلك الزمان.

وكنّا ثلاثة: الشاعر القروي رشيد سليم الخوري وهو وأنا، وقد ذهبنا إلى البربارة لتبليغ الشاعر حصوله على جائزة رئيس الجمهورية لأصدقاء الكتاب. فقال القرويّ في تورية إنّه يحبّ القمم اللبنانيّة الشامخة حبّاً خاصّاً لأنّه منها يطلّ ببصره على أوسع رقعة ممكنة من أرض العرب. فأعجبت الكلمة خليلاً على أنّها أقصى الاعتزاز باللبنانيّة وأقصى الاعتزاز بالعروبة معاً. فهو أيضاً، كما قال، يحبّ الصعود إلى جبل صنّين قرب الشوير، ويستمتع على قمّته بالنسيم البكر والمطلّ الجميل.

أمّا آخر زيارة ليليّة قام بها خليل إلى منزلي فكانت قبيل الاحتلال الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. فقد كان شاهد ليوم خلا مقابلة تلفزيونيّة مع السياسيّ اللبنانيّ ميشال اده حول اسرائيل واليهوديّة والمجتمع اليهودي وأعجب بها وجاء يسألني عن رأيي في جلسة تجمعنا مع الرجل صاحب المعلومات والأفكار اللافتة عن الموضوع. فاتصلنا بمنزل اده فكان مسافراً. ولم تتمّ الزيارة التي أرادها خليل، لأنّه هو نفسه سافر في رحلة اختارها، ولم يكن بعدها لقاء.

حكى كلاماً فيه نعومة وسلاسة ويكاد يجرح القلب. حكى مع الحسّون، مع القبّرة، مع الحجل البرّي. حكى مع الشرمر، مع الكرسعنة، مع المرّار، مع النعنع البريّ.

تحدّث إلى سطح البحيرة الذي يشبه بطن الغزالة، وحكى مع سمك المشط وسمك الكرسين، ومع العظاظى والبلبوط والمرمور.

شددته من يده لأوقظه، فمشى معي وهو يحكي...

ظللنا نصعد ونصعد، والبحيرة على الجانب الآخر تكبر وتكبر.

دار الآداب